

## ليلة في العمر

بقلم الأستاذ محمد السيد

دخل (الخالخام) منزل المرأة العزباء، ثم ألقي نظرة سريعة على الموائد الموضوعة في الردهة وما عليها من الآنية الفضية، وما حولها من معدات مأدبة أنيقة، وإن لم تكن ذات بال، ثم التفت إلى ربة البيت وقال: حسنا — لقد أعددت كل شيء يا (إستر) .

فأجابت المرأة على الفور: أجل يا سيدي الخالخام .

ثم تفقد الرجل بعض الآنية الموضوعة على الموائد، وأخذ يحدق إليها مليا، وجعل يطرئها، ويطرئ صاحبها التي تمنى لها حياة سعيدة ناعمة، ثم انصرف لشأنه (ضاحكا) تشييعه نظرات حائرة، وآهات مكنونة، من أعماق تلك المرأة السعيدة، أو المرأة البائسة، على السواء .

ودعت (إستر) ضيفها، وعادت ... مهمومة، مسرعة، كأن شيئا قد فاتها، أو كأنها تريد أن تدرك القطار، وقد آذن موعد الرحيل ... فهي تصدر أوامرها للخدم، ثم تجلس هنا هنيئة، وتقف هناك برهة، تباشر بنفسها عمل كل شيء، وإن كانت لاتعمل أى شيء . ثم حانت منها التفاتة إلى المرأة الموضوعة في الردهة، فتقدمت منها رويداً رويداً، وراحت تتأمل نفسها، وتمعن، وتدقق، كأنها تفحص شيئا، أو تبحث في المرأة عن شيء فلا تجده، ولا تصل إليه ... وكانت نتيجة ذلك أن أخذتها رعدة، ثم احتواها شعور غريب ... ينم على خوف من شيء مجهول ما كانت تعرفه من قبل أو تفكر فيه ... ذلك أنها رأت (مفرقها) وقد علتته شعرات بيضاء، فارتاع فؤادها، وراعها راعها ...

ويلاه!.. ويلاه!.. ماذا حدث؟ حتى ابيض شعري!! أعجزوز أنا؟

كلا... وألف كلا... فأنا ما أزال صبية... نعم: أنا صغيرة... في فجر العمر، وشرخ الشباب... أليست آية ذلك أنى لم ألد إلا مرة واحدة، وليس لى إلا ولد واحد؟... وراحت تغالط نفسها، وتقيم الأدلة والبراهين على أنها ما تزال صغيرة حتى لقد ألقي في روعها أنها ما تزال بكرآ لم يمسه إنس ولا جان ...

وسرعان ما ارتدت عن المرأة مغيظة محنقة، ولو كان بيدها أو بجانبها شيء تكسر به تلك المرأة اللعينة لما ترددت ...

\*\*\*

(إستر) تلك امرأة نصف، لاهى بالفتاة الحسنة، ولا بالعجزوز الشوها، تبدو للناس: مرحة، أنيقة، نزقة، لاتعرف من حساب الزمن إلا أنها تمش ليومها، تعبت بالحياة وتضحك

من الناس ، فالهم لا يعرفها، وهي لا تعرفه ، ثم من ذا الذى يستطيع فى هذه الدنيا أن يحزن تلك المرأة التى رحل عنها زوجها إلى الدنيا الحديثة حيث يعيش فيها ، ثم رحل أبواها إلى الدار الآخرة، وبقيت هي من غير زوج ولا أهل ، تستسهل صعب الحياة وتعيش بشغف دائم الابتسام، فلا تراها إلا ضاحكة أو عابثة ...

\*\*\*

ولما أقبل المساء ، توافد المدعوون، حتى امتلأت بهم ردهات البيت وحجراته ، وكل منهم يهنئ ( العروس ) ويتمنى لها أعذب الأمانى، وأرغد العيش وأهنأه وأصفاه ، ثم أخذ القوم يسرون ، ويلهون بما أعدت لهم تلك المرأة من : لهو ، وطرب ، وفكاهة .

\*\*\*

وما أن دخل ( العريس ) الشاب فى جمع من صحبه وخلانه يتعثر فى ثيابه الفضفاضة وحدائه الفخم ، حتى التهمت أنظار الكافة متضاكين متغامزين ... ثم تقدم به نفر من صحبه إلى ( العروس ) .

ولقد استقبلته أحسن استقبال ، ثم جلس بجانبها يتحدثها ...

- أين العروس يا هذه ؟ فأجابته : أنا هي ...

- أنت ؟ .. أنت العروس إذن !!!

- نعم : أنا هي ... ألسنت أنال رضاك وأحوز إعجابك ياسيدى ؟

- كيف لا ؟

- لكن أنت ... ( مسنة ) ، أليس كذلك ؟

أجابت فى غضب ، وجفوة : مسنة ؟ كيف ؟ أنا مسنة ؟!! لا لا لا ... أنا لست مسنة ،

أنا شابة ... افتح عينيك ، وانظر جيدا ... ولماذا تأخذ الألف جنيهه إذا كنت أنا مسنة ؟

- عفوا ياسيدتى ، أنا نسيت ... أنا أخطأت ... اغفرى لى من فضلك ، فإن فيك ملامح

بل شبيها قويا من المرحومة والدتى التى اختارها الله منذ عشرة أعوام كاملة ...

\*\*\*

وكان ( مراد ) أو ( كلوبوزو ) - كما يسميه أطفال الحارة الأشقياء - يبيع اليانصيب ، فقيرا

معدما ، لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، يمشى طوال الوقت يعرض أوراقه ، فإذا انتهى النهار وشرط

كبير من الليل ، آوى إلى كهف فى ( الحارة ) من تلك التى يصطنع المبيت فيها أبناء السبيل لقاء

ملايات ... فإذا كان اليوم الثانى عاد سيرته ، فهو من الشقاء والفاقة كمن يسير فى اسطوانة مفرغة

تنتهى حيث تبتدىء وتبتدىء حيث تنتهى .

وكان ( مراد ) إلى جانب هذا ساذجا ، فالتفت إلى زوجته وأخذ يسألها : أكل هذا المنزل

وما يحتويه لك وحدك ؟ أهل كل ما تلبسين من جوهر وذهب لك وحدك ؟ هل هذا كله لك ؟

ولما لم تجبه تولى هو الاجابه بنفسه عن تلك الأسئلة جميعها...  
 — نعم إن التي تدفع للعريس (دوطة) ألف جنيه، تستطيع أن تملك الدنيا وما في الدنيا...  
 ثم أخذته طيوف لذيذة وأحلام كلها هناء وسعادة ، فراح يسألها مرة أخرى:  
 — والألف جنيه متى تدفعينها؟  
 — أدفعها الآن حالا ...  
 — ولكن ماذا أفعل بها؟  
 — تفعل بها ما تريد ...  
 كيف أفعل بها ما أريد ... إنى أريد أن أعرف ماذا أصنع بها... أأست زوجي ومن حتى  
 أن أستشيرك في كل شيء؟  
 فأجبت : نعم ، هو ما تقول ...  
 — غدا؟ لا ليس غدا ، بل الآن اسمعى ... ستدفعين الألف جنيه ، وسأقبضها طبعاً  
 ومن غير شك ، أليس كذلك؟  
 — نعم ستقبضها ...  
 إذن : أستطيع أن أكون تاجراً... تاجراً كبيراً... لكن السوق في هذا الزمن قلب، ربما  
 أضعأت النقود، فالأحسن أن أتجر بمائة وأضع الباقي في البنك، لاحتساباً جارياً، ولكن بفائدة ...  
 أليس الأحسن ذلك يا عزيزتى؟  
 — أنت حر في مالك طبعاً ...  
 — أوه ... أأست زوجي ، ومن حتى أن أستشيرك في مهماتي؟  
 — نعم هو ذلك .

ثم أخذ يستعجلها قبض المبلغ ، فاستمهلته حتى يحضر (السنيور) لأجراء صيغة العقد الشرعية  
 أولاً ، فوافق واشترك مع الجمع الحاشد فيما هم فيه من مأكول ومشرب ولهو غير أئيم.

\*\*\*

ولما وافقت الرابعة صباحاً أخذ الحاضرون يتسللون إلى الخارج لوأذا ، ولما لم يبق إلا خدم  
 للمائدة استعجل (مراد) صاحبه .  
 أين (السنيور) وأين الدنانير يا هذه؟  
 ثم أخذ هذا الاستعجال يتطور إلى شيء من الأمر والنهى ، بل إلى شيء آخر من الشغب والملاحاة.  
 فقاده اثنان من الخدم إلى الخارج، ودفعوا به إلى غول الظلام واليأس، وأسر أحد الشقيين في  
 أذن المسكين : ألا تعرف أن هذا اليوم أول إبريل (يا عبيط)؟